الفصل الخامس عشر

مقالات في الصحابة والأعلام والشخصيات الإسلامية(1)

أولاً: مصابيح الهدى في تاريخ الأمة

تقديم لكتاب «قبسات من سير العظماء»

الحمد لله الذي خلق الناس، وفضّل بعضهم على بعض، وجعل العلماء ورثة الأنبياء، وأفاض عليهم العقل والحكمة، والنور والرشاد، ليكونوا مصابيح الهدى، وكواكب الحياة.

والصلاة والسلام على رسول الله، إمام المتقين، وقائد الغرّ الميامين، والهادي إلى الصراط المستقيم، والمربي المعلم الذي قال: «إنما بُعثت معلماً»، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن القرآن الكريم هو معجزة الله الخالدة الدالّة على أنه كلام الله، وأنزله على محمد بن عبد الله لتأييده في النبوة، وتصديقه في الرسالة، وليكون نوراً وهداية إلى قيام الساعة.

وقد تعددت وجوه الإعجاز بما لا يدخل تحت الحصر، ولم يقتصر الإعجاز القرآني على الجانب البياني، والفصاحة والبلاغة، والإعجاز العلمي، والعددي، والتشريعي، بل كان الإعجاز القرآني الدائم المشهود في المجال

(1) للمزيد في ذلك انظر كتابنا «قبسات من حياة الصحابة»، ١٤٣١هـ/٢٠١١م، وكتابنا «مرجع العلوم الإسلامية» دار المصطفى، دمشق، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م، وكتابنا «شخصيات إسلامية» دار المكتبي، دمشق، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

التربوي، وإعداد الأمة والأجيال على أفضل منهج وأقوم سبيل.

واستمرت معجزة القرآن في التربية بتخريج الأئمة، والعلماء، والمجتهدين، والفقهاء، والدعاة، والمحدثين، والمربين، والقادة، والأبطال، وأنجبت نخبة من الشوامخ في مختلف العلوم، منذ نزل القرآن، وطوال التاريخ، وحتى تقوم الساعة، ويمثلون صفوة المجتمع، ليكونوا مصابيح الهدى، والرواد إلى الخير والبر، فكانوا علماء حكماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء، كما ورد في الحديث «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل».

وطبق رسول الله ﷺ منهج القرآن الكريم الفريد في التربية، وهو المجتبى من ربه، والمصطفى على سائر خلقه، والمعلم الأول، فكانت إحدى معجزاته تربيته وتعليمه لصحابته الذين كانوا خير جيل عرفه التاريخ، وقد تخرجوا من مدرسة محمد ﷺ النبوية، ومدرسة القرآن والسنة، وبرز فيهم العلماء الذين كانوا نخبة الأمة، وكواكب الهداية.

واستمرت مدرسة القرآن، ومنهجه، ومدرسة النبوة وتعاليمها، تنجب العلماء، والعظماء، وتخرّج الدعاة والأئمة، ليكونوا منارات الرشاد، والملجأ للناس في الخطوب والملمات، والموئل لهم في شؤون الحياة، والمرجع للخلفاء والأمراء، والولاة والحكام، والقادة والعامة، وكانوا قدوة في السلوك، ومثلاً أعلى في العيون، وموضع الثقة والاحترام من الجميع، بل كانوا منارات للبشرية، ويقصدهم حتى غير المسلمين.

وكان الناس يلتفون حول علمائهم، ليأخذوا منهم، ويتربوا على أيديهم، ويتأسوا بفضلهم وشمائلهم، ويرصدوا مواقفهم المشهودة، وأعمالهم الفريدة، ويتعرفوا على سيرهم.

وقام المؤلفون في مختلف الأزمان بتدوين أخبار العلماء في كل عصر، وفاءً لهم، وتخليداً لذكراهم، ووسيلة ناجعة لمتابعتهم، والسير على خطاهم، وظهرت كتب حياة الصحابة، وكتب الطبقات، والتاريخ، والأعلام، والتراجم التي تمثل صفحة مشرقة من تاريخ الأمة الإسلامية، وتمّ إفراد كثير من العلماء بمؤلفات خاصة.

وإن الاطلاع على حياة هؤلاء العلماء من خير الوسائل التربوية للإنسان، لأنهم يمثلون التطبيق العملي للقرآن والسنة، والقيم والأخلاق، والأحكام والتعليمات، ولأنهم يقدمون الترجمة العملية في التطبيق والسلوك في مختلف الأحوال، فهم مدرسة صامتة وناطقة معاً، وهم معلمون ومربون، وهم مشاعل النور والهداية.

وإن القارىء لسيرة هؤلاء العلماء، والمطلع على أخبارهم، يتأثر بهم، ويستفيد منهم، ويتفاعل معهم، ويرتوي من مشاربهم، لذلك يحافظ الدعاة والمؤلفون على تقديم الدراسات عنهم، ونشر سيرهم، كإحدى الوسائل المفيدة في الهداية والتربية والتهذيب.

ومن ذلك ما قام به ابننا النجيب ،الشاب المهذب الأديب، الخطيب، صفوان وحيد شعبان من عرض جانب من حياة سلفنا الصالح، وعلمائنا النجباء، وأئمتنا البارزين، في كتابه «قبسات من سير العظماء» واختار ثلة منهم من مختلف المشارب، وتحرى الأخبار الصحيحة عنهم ،ورتبهم حسب القرون، ووضع العناوين الجانبية لكل منهم، ليسهل على القارىء المعرفة والتركيز، وأفرد فضائلهم، ومناقبهم، وسجل مواقفهم، واحترام الناس لهم، والثناء عليهم، وتخليد ذكراهم، وبعض مؤلفاتهم، وقام بتوثيق المعلومات من

المصادر الموثوقة، واقتصر على سيرة أربعة من الصحابة، لأن الصحابة يحتاجون إلى مصنف خاص، وهو ما قمت به في كتابي «قبسات من حياة الصحابة» (نشر دار القلم العربي، حلب، ٢٠١٠م)، ثم عرض سيرة بعض الأعلام التابعين، وأئمة المذاهب الأربعة، وكبار العبّاد والعلماء، حتى وقف عند العالم الزاهد، والفقيه المحدث، والمؤرخ المدقق النووي رحمه الله تعالى (٦٧٦هـ)، وكلهم يجمع بين العلم والعمل، والتقوى والصلاح، والسيرة الحسنة، والمواقف المشهودة، فتطيب بأخبارهم القلوب، وتبتهج النفوس، وفي ذكرى الصالحين تتنزل الرحمات، وهذا غيض من فيض، وهو أول المشروع ليكتمل في المستقبل بإذن الله تعالى، فيكتب الله تعالى الأجر للباحث، ويستفيد من ذلك أولاً، ثم يستفيد القراء، ويجدد سيرة السلف الصالح، فجزاه الله خير الجزاء، ونفع بعلمه، ووفقه للسداد والاقتداء، والعمل النافع الطيب.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

ثانياً: قصة الذبيح إسماعيل

«افعـــل ما تؤمـــر»

◈ صفات وشمائل إبراهيم عليه السلام:

إن توجيه هذا الخطاب من الله تعالى الخالق البارئ، الآمر الناهي، إلى سيدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، **لأمر عظيم**، وتقشعر له الأبدان، وفيه موقف مهيب، وقد يطيل الإنسان فيه التفكير، وكأنه عقدة القصة، ومفترق الطرق، ويتساءل المرء مع نفسه ما هو الجواب؟

وكيف كان موقف إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام؟

ولكن يسهل الجواب إذا طبقنا المثل القائل: «إذا عرف السبب بطل العجب».

فمن هو إبراهيم عليه السلام؟

١- إنه **أبو الأنبياء** عليهم السلام عامة، وأبو المسلمين خاصة ﴿**مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ**﴾ [الحج: ٧٨]، ﴿**وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۗ**﴾ [النساء: ١٢٥]، ﴿**وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ**﴾ [يوسف: ٣٨].

٢- إنه **الرسول المصطفى، والنبي المجتبى**، قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾ [آل عمران: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١].

٣- إنه الشخص الذي **جابه قومه كلهم**، وسخر من آلهتهم، وحطم أصنامهم

عندما كان فتى، ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠] ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾ [الأنبياء: ٦٢].

٤- إنه رجل تتمثل فيه **أمة كاملة**، قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ﴾ [النحل: ١٢٠].

٥- إنه **خليل الله، وخليل الرحمن** قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥].

٦- إنه **ذو العقل الراجح، والقلب الخاشع،** ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥]، وقد أتاه الله **الرشد**، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥١].

٧- إنه **الإمام من قبل الله تعالى،** المتفوق في الامتحان الأول والاختبار من ربه سبحانه وتعالى، قال عز وجل: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وكلفه ربه بالرسالة والأحكام فوفى أداءها وأكمل فعلها، قال تعالى: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٧].

٨- إنه **صاحب المعجزات الباهرة** التي غيرت طبيعة الأشياء، ونواميس الكون لأجله قال تعالى: ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥].

٩- هذه المكانة التي بينها القرآن الكريم عن إبراهيم ثم إسماعيل، وقيامهما ببناء الكعبة المشرفة، أوحت إلى الفاروق الملهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يطالب **بإحياء ذكرى إبراهيم عند الكعبة**، فنزل قوله تعالى: ﴿**وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ**﴾ [البقـــرة: ١٢٥]، وذلك بعد التكليف الإلهي له في قوله تعالى: ﴿**وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ**﴾ [البقرة: ١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ**﴾ [البقرة: ١٢٧]، ولذلك وصف الله البيت الحرام، فقال تعالى: ﴿**فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ**﴾ [آل عمران: ٩٧].

١٠- إن إبراهيم هو **العلامة المناظر** من الدرجة الأولى ليفحم الملك الجبار المتكبر، قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ**﴾ [البقرة: ٢٥٨]، ثم وصفه الله تعالى **بقوة الحجة**، فقال تعالى: ﴿**وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ**﴾ [الأنعام: ٨٣].

١١- إن إبراهيم عليه السلام هو **المؤمن** الذي يريد أن يكون **إيمانه يقيناً كاملاً**، وطمأنينة لا شك فيها، فطلب من ربه أن يريه كيف يحيى الموتى، قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰۖ قَالَ**

أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

١٢- إن الله آتى إبراهيم **الكتاب والحكمة** والملك العظيم فكان أهلاً لذلك، قال تعالى: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

١٣- لكل ما سبق، ولغيره، جعل الله تعالى إبراهيم **أسوة حسنة، وقدوة رفيعة** للسير على خطاه، قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ [الممتحنة: ٤].

◈ البشرى بإسماعيل عليه السلام:

كان إبراهيم **مشغولاً بالدعوة** للتوحيد وعبادة الله تعالى، ولاقى من قومه الويلات، وطالت عليه الصعوبات، وهو لا يلين، ولا يمل، ولا يفتر.

وشاءت إرادة الله تعالى أن يتركه وحيداً، وبلا ولد، حتى طعن في السن، وشاب رأسه، وبلغ من الكبر عتياً، فتجاوز السبعين، وكانت امرأته عاقراً عقيماً لا تلد.

واتجه إبراهيم عليه السلام إلى الله تعالى بالدعاء **ليمن عليه بالخليفة والولد** ليعينه على الدعوة والطاعة، ويؤنس وحدته، ويزيل وحشته، قال تعالى على لسان إبراهيم: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠]، فطلب الولد، ووصفه بالصلاح، لأن نعمة الولد تكون أكمل إذا كان صالحاً، فإن صلاح الأبناء قرة عين للآباء، ومن صلاحهم برهم بوالديهم.

وأرادت زوجته سارة **الوفاء لزوجها**، حباً له، وإخلاصاً، فزوجته من خادمتها أو جاريتها هاجر، وشاءت الإرادة الإلهية أن **يرزقه الله الولد**، فحملت هاجر بقدرة الله ومشيئته، وهنا ثارت الغيرة الشديدة من الزوجة الأولى سارة، وأبت إبقاء هاجر عندها، فأوحى الله إلى إبراهيم -لحكم جمة- أن يأخذ هاجر مع وليدها إلى مكان بعيد، وأن **يسافر بها إلى الحجاز**، ويتركها مع ولدها، في واد غير ذي زرع، لا ماء فيها، ولا شجر، وتسأله عن السر، فأخبرها بإرادة الله ومشيئته، فأسلمت أمرها لله، وقالت: **لن يضيعني الله**، حتى تفجر ماء زمزم، والتقت عنده القبائل وأصبح المكان آهلاً.

◈ نشأة إسماعيل عليه السلام:

كان إبراهيم عليه السلام يتردد من العراق وبلاد الشام إلى الحجاز، ويزور أهله، ويرعى ولده إسماعيل الطفل الصغير، والفتى النابه.

وتعلق قلب إبراهيم عليه السلام بولده الوحيد إسماعيل، ورأى فيه النجابة والمهابة، والبشر، والسعادة، وأنه الامتداد للنبوة، والأمل للمستقبل، والمعين في الحياة.

وازداد إبراهيم عليه السلام **حباً لإسماعيل** الذي أفاض الله تعالى عليه الجمال والكمال والرشد والحلم، والعقل والصفاء، والصلاح وبر الوالدين، حتى ازداد تعلق إبراهيم بابنه الوحيد إسماعيل الذي طلبه من الله تعالى فأعطاه إياه، قال تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ (رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ، فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ) [الصافات: ١٠٠-١٠١]، فكان الصبي حليماً، وفيه سر أبيه، والشاهد لطهارة أصله، ولم يوصف نبي من الأنبياء بالحلم إلا إبراهيم وإسماعيل، والحليم هو الموصوف بالحلم، وهو

اسم يجمع أصالة الرأي ومكارم الأخلاق، والرحمة بالمخلوق.

وتضاعف الحب بين الوالد وولده عندما صار الفتى الصغير يرافق أباه، ويسعى معه في أشغاله، وتجلى الرفق والحنان بينهما، وتوطدت العلاقة الأبوية، حتى بلغ ثلاث عشرة سنة، وقيل: سبع سنين.

◈ الامتحان الإلهي الأكبر:

وهنا أراد الله أن **يمتحن إبراهيم** -والله أعلم بقلبه- وأراد أن يرفع شأنه للعالمين ويجعله إماماً، حقاً وحقيقة، ويقيم الدليل والبرهان للبشرية على علو مرتبته في طاعة ربه، وعلى استحقاقه لهذه الإمامة حتى تقوم الساعة، وأنه يتمتع بالصفات والشمائل الكاملة التي ذكرناها سابقاً.

وكان **الامتحان صعباً**، وشديداً، وقاسياً، ويتعلق بمهجة الكبد، ولأن أشد أنواع الابتلاء والمصائب في الدنيا الابتلاء بالأولاد، إما بالموت، أو المرض، أو العاهات، لأن الولد أعز ما يملك وزينة الحياة الدنيا، وكان ابتلاء الله لإبراهيم في ولده بصورة **تقشعر لها الأبدان**، فلم يقبض الله تعالى روح إسماعيل لمجرد امتحان إبراهيم، كما يبتلى الله الناس بقبض مهج أكبادهم، ولم ينزل به الأمراض والعاهات، ولم يكتب عليه الضياع، أو الأسر أو الرق والعبودية، بل **بقتله ذبحاً**.

ولم يخبره الله بموته ذبحاً عن طريق آخر، عدواناً وبغياً، حتى يحتسبه عند الله، ويعتبره شهيداً، ويفوض أمره إلى الله، ويسلم مصيبته لربه.

بل **أمره بذبحه بيده**، وهذا أقسى امتحان في الدنيا، وأشد بلاء في الحياة، وأكبر مصيبة في الكون، فإن الولد عزيز على نفس الوالد، وخاصة أنه الوحيد الذي هو أمل الوالد في المستقبل كما طلب سابقاً، ثم يؤمر أن يتولى بيده

إعدام أحب الناس إليه، وذلك أعظم الابتلاء[1].

ولكنه **الأمر الإلهي** من رب العالمين لنبيه وصفيه وخليله، وهنا ظهرت آثار الصفات السابقة، والشمائل الجمة لإبراهيم، فما كان منه إلا التسليم أولاً، ثم السعي بأسلوب رفيع لتنفيذ الأمر الإلهي، **فشاور ابنه إسماعيل**، ووضعه في صورة الامتحان والأمر الإلهي، واستشاره في ذلك ليلطف عليه الفعل، وينقاد للأمر، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ﴾ [الصافات: ١٠٢]، ورؤيا الأنبياء حق ووحي ملزم.

وهنا تجلت أيضاً **شمائل إسماعيل**، ورجاحة عقله، وشدة إيمانه، وعظيم تربيته في بيت النبوة، فناداه بإيمان وتسليم، وثقة وقناعة، وبر وطاعة، فقال: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ﴾[2] ثم أراد أن يخفف على أبيه، ويعزيه بالمصاب سلفاً، فقال: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

◈ التنفيذ والنتيجة:

لقد زالت الحجب والحواجز، وتحطمت الشهوات والرغبات، وتجمدت

---

(١) إن أمر الله بذبح ولده أمر ابتلاء، وليس تشريعاً، والمقصود من هذا الابتلاء إظهار عزمه وإثبات علو مرتبته، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ [الصافات: ١٠٦]، ولو كانت سنة لذبح الناس أولادهم.

(٢) استعمل فعل المضارع تؤمر لتكرر الرؤيا من إبراهيم، إذ رأى ذلك ليلة الثامن من ذي الحجة، فلما أصبح تروى، فسمي يوم التروية، ثم رآه ليلة التاسع فعرف أنها من الله، فسمي يوم عرفة، فعزم في العاشر على نحره فسمي يوم النحر (انظر ضياء التأويل ١٨/٤، وانظر بقية وصيته لأبيه في تفسير الكشاف ٣٤٩/٤)، حتى قال إبراهيم له: **نعم العون أنت يا بني على أمر الله.**

الغرائز والعواطف أمام الإيمان، وانقادت القلوب لربها وبارئها، وسلمت بقضائه وقدره، وأنه لا محيص عن تنفيذ **أمر الله تعالى**، والانصياع لمشيئته، والرضا بحكمه، والتسليم الكامل لإرادته، فأسلم إبراهيم وإسماعيل لأمر الله، واستسلما معاً لقضاء الله تعالى، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ أي استسلما وانقادا وخضعا.

واتجه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام للتنفيذ، وأحضر إبراهيم فعلاً السكين، واضجع ولده، بل قلبه وكبده وروحه، وصرعه على الأرض، ووضع جبينه جانباً، ثم وضع السكين على الرقبة لتقطع، فحزها فلم تفعل، فتحامل عليها مصراً على التنفيذ فأبت، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣]، ويقال: كان ذلك عند الصخرة التي بمنى، أو في الموضع المشرف على مسجد منى، أو في المنحر الذي ينحر فيه اليوم.

وهنا تجلت **الرحمة الإلهية، والنفحات القدسية**، فأنزل الله جبريل مسرعاً كالبرق منادياً إبراهيم عليه السلام ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ [الصافات: ١٠٤-١٠٦]، وأعطى الله تعالى إبراهيم **ذبيحاً فداء**، وقال له: هذا فداء ولدك فامتثل فيه ما رأيت في المنام فإنه حقيقة، قال تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ [الصافات: ١٠٥]، وجاء الفرج بعد الشدة، والظفر بالبقية بعد اليأس.

وكانت النتيجة بنزول الرحمة الإلهية، فأنزل كبشاً عظيماً من الجنة ليكون الفداء من الله تعالى لإسماعيل، قال تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧]، وغير إبراهيم عليه السلام وجهه ويده وذبح الكبش، ونجح في الامتحان.

ثم زاد الله الفضل على الفداء، وأعلن نتيجة الامتحان والبلاء، بما يستحق من الثناء، والذكر الخالد مدى الدهور، قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٨]، لتكون ذكرى إبراهيم باقية على الدهور للأجيال، ثم جاء **الوسام الإلهي لإبراهيم والجائزة الكبرى**، والتكريم والرضى، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ (بعد إسماعيل) نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٠-١١٣]، ولذلك وصف الله إبراهيم في سورة أخرى ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧] تأكيداً لقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وكانت قصة الذبيح إسماعيل، وعبارته الخالدة: ﴿افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ وحياً يتلى، ومثلاً رائعاً، وصفحة مشرقة من حياة الأنبياء، وعبرة خالدة على مر التاريخ للبشرية جميعاً، وتمثل اللسان الناطق لكل مؤمن في امتثال أحكام الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

◈ الدروس والعبر من فداء إسماعيل في التشريع الحكيم:

يؤخذ من قصة الذبيح إسماعيل مع أبيه إبراهيم الخليل عليهما السلام دروس كثيرة وعبر عديدة، وأحكام شرعية، منها:

١- كان نداء الله تعالى لذبح إسماعيل وإنزال كبش من السماء ليذبح بدلاً من إسماعيل، كان ذلك مناسبة، وسبباً لتشريع دائم للناس، وهو **سنة الأضحية**، حتى سمي العيد الأكبر للمسلمين بهذا الفداء، وأنه عيد

الأضحى، فيتجه المسلمون في أرجاء المعمورة عامة، وفي الحرم المكي خاصة، وعلى صعيد منى في وجه أخص، إلى تقديم القرابين، وذبح الأضاحي، لإطعام الناس عامة، والفقراء خاصة، والمضحين وأهل البيت ثالثاً، حتى كان **إهراق الدم يوم العيد أفضل أعماله**، وأكثر قرباً لله تعالى، وصلة بالعبادات، وتحقيقاً للتكافل الاجتماعي، ونشر الأفراح بين الناس، وإدخال المسرة والحبور لذوي القربى والفقراء والمساكين(١).

٢- إن الإيمان الصحيح **يقتضي التسليم الكامل، والاستسلام التام لله تعالى**، والانصياع لأوامره ونواهيه، والوقف عند حدوده، وأحكامه، والالتزام بشرعه، وابتغاء مرضاة الله تعالى، ولذلك سمي الدين الحق بالإسلام، لأنه استسلام لله تعالى، وكان إبراهيم عليه السلام **أول المسلمين**، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، وقال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨] ولذلك **كان دين الأنبياء جميعاً هو الإسلام**، وكان قولهم جميعاً أنهم مسلمون، أي مستسلمون لله تعالى، وهنا يكون المسلم مسلماً حقيقة وواقعاً.

٣- **إن معظم أعمال الحج، في أركانه وواجباته، مستمدة من أعمال إبراهيم**

---

(١) أنظر: تفسير القرآن العظيم المسمى ضياء التأويل في معاني التتريل، لأبي محمد عبد الله بن محمود بن عثمان، الملقب بفودي (١٢٤٥هـ) ١٧/٤-١٨، تفسير التحرير والتنوير، للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور (١٣٩٣هـ/١٩٧٣) مجلد١١، ج٢٣/١٤٨ وما بعدها، تفسير الكشاف، محمود بن عمر الزمخشري (٥٣٨هـ) طبعة طهران ٣/٣٤٤، ٣٤٧.

وإسماعيل عليهما السلام، اللذين بنيا الكعبة المشرفة، وأذن إبراهيم عليه السلام بالحج، قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ...﴾ ثم قال تعالى آمراً له: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ [الحج: ٢٦-٢٨] **وكان السعي اقتداء بهاجر** أم إسماعيل، والرمي والأضحية التزاماً بما فعله إبراهيم، وهذا يؤكد **الصلة الوثقى بين الأنبياء والرسل، ووحدة الدين**، والارتباط الكامل بين أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام وبين خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام، ومن ذلك مشاركة المسلمين اليوم سيدنا إبراهيم وإسماعيل بالفرحة في الفداء والأضحية.

٤- **إن امتثال أمر الله تعالى**، والتقيد بأحكام شرعه، يحقق السعادة في الدنيا، والفوز بالآخرة، وإن اقترن بالشدة والامتحان والاختبار، فامتثال الأمر مع البلاء والشدة يعقبه الفرج، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦]، وأن هذا الابتلاء في الدنيا، والجزاء لفاعله ليس خاصاً بإبراهيم والأنبياء، بل هم فضل عام من الله تعالى لكل محسن وفاعل خير كما جاء في الآية السابقة ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٥]، أي عامة المحسنين، **فالدنيا دار ابتلاء واختبار**.

٥- إن مشاورة إبراهيم لابنه إسماعيل في تنفيذ الأمر الإلهي توجب على المسلمين، والبشرية عامة، **التشاور في الأمر**، وعدم الاستبداد والانفراد بالرأي، وإن هذه الشورى تبدأ وتنطلق من البيت والأسرة، ومن الأب لأولاده، قبل أن يطلب منهم وجوب مشاورته، بل يربيهم على الفضائل

والأخلاق الحسنة والآداب الإسلامية، ليكون لهم قدوة وأسوة، ليسيروا على منواله، ويتأسوا خطاه.

وإن **الشورى في الإسلام** تبدأ أولاً من البيت، لتنتقل إلى القرابة والأهل والعشيرة، ثم ترتقي إلى المجتمع والشعب والأمة، ولا يمكن تطبيقها دفعة واحدة في المجتمع إذا كانت مفقودة في البيت والأسرة.

٦- تدل القصة في بدايتها ونهايتها على **دور الأب في التربية**، وأن إبراهيم عليه السلام أحسن تربية ولده إسماعيل تربية إيمانية عظيمة، وعوده على الأخلاق الحميدة الفاضلة، فكان باراً بوالده، وكان إيمانه عميقاً، فاستسلم لمشيئة الله وقدره، ولبى نداء ربه، وسارع على تنفيذ أمر الله تعالى، قائلاً: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ فكان نعم العون لأبيه على طاعة الله تعالى ومساعدته لوالده في تنفيذ الحكم الإلهي، ورضائه الكامل بقضاء الله، وليكون باراً بوالده، بل زاد البر لوالده بمواساته، وتعزيته بنفسه، وتخفيف المصاب عليه، وتلطيف الآثار عنه ثم طلب منه أن يتلطف في إبلاغ والدته والإحسان إليها، ولذلك كان الولد سر أبيه، وأن حسن التربية للأولاد في الصغر يجني الوالد أثرها في الدنيا بالبر والطاعة وحسن المعاملة.

ونسأل الله التوفيق، والعودة إلى كتاب الله تعالى، لنفهم القرآن الكريم فهماً صحيحاً، ثم لنعمل بأحكامه وآدابه وتوجيهاته وايحاءاته، والحمد لله رب العالمين.

ثالثاً: أنس بن مالك

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله المعلم الأمين، ورضي الله عن الصحابة أجمعين الذين يمثلون معجزة الإسلام التربوية، وفي طليعتهم أنس بن مالك رضي الله عنه.

◈ اسمه ونسبه:

هو أنس بن مالك بن النضر الأنصاري الخزرجي النجاري، فهو من أهل المدينة المنورة، ومن قبيلة الخزرج المشهورة، ومن بني النجار الذين كانوا أخوال النبي ﷺ، وكان يودّهم، ويفخر بهم، ولما توفي نقيبهم أسعد بن زرارة رضي الله عنه جعل النبي ﷺ نفسه نقيباً لبني النجار، وقال لهم: «أنتم أخوالي، وأنا بما فيكم، وأنا نقيبكم» فكان ذلك من فضل بني النجار، وأمه أمّ سُليم الصحابية السابقة للإسلام، المجاهدة ذات المناقب، وزوج أمه أبو طلحة المجاهد الشجاع الجواد، وأخوه البراء بن مالك بطل اليمامة الشهيد في تستر، وعمه أنس بن النضر الذي استشهد في أحد، فهو من أسرة كريمة، ذات مكانة رفيعة في الإسلام.

◈ ولادته ونشأته:

ولد أنس رضي الله عنه قبل الهجرة بعشر سنوات، وتوفي والده بعد انتشار الإسلام بالمدينة بقليل، وقبل هجرة النبي ﷺ دون أن يسلم، بينما بادرت الزوجة (أم سُليم وهي أم أنس) إلى الإسلام، وتولت تربية ابنها أنس، ولقنته الشهادة، فأسلم وصار يرقب قدوم النبي ﷺ إلى المدينة ويخرج مع الغلمان كل يوم ليتشرفوا باستقبال الوافد الذي آمنوا به قبل أن يروه حتى سعدوا بذلك، وكان أنس أكثرهم حظاً، فقدمته والدته خادماً لرسول الله ﷺ وعمره عشر سنين، فعاش في كنف النبوة، وبيت الرسالة، ومدرسة القرآن، وتربى على يد

المصطفى عليه الصلاة والسلام، وبقي في خدمته ومرافقته عشر سنوات، ينهل من المعين الذي لا ينضب، ويتربى على المثل والقيم تحت ظلال الوحي، ولقي معاملة طيبة كريمة من النبي ﷺ عوضه فيها عن والده في التنشئة والتأديب والتوجيه والتعليم، وكان يناديه بعبارة «يا بُني»، فحفظ عنه السنة، وكان من أكثر رواة الحديث بعد أبي هريرة وابن عمر رضي الله عنهم، وأخرج مسلم عن أنس قال: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، والله ما قال لي أفاً قط، ولا قال لي لشيء لِمَ فعلت كذا، وهلاّ فعلت كذا»، وكنّاه رسول الله ﷺ بأبي حمزة، ودعا له فقال: «اللهم ارزقه مالاً وولداً وبارك له» ، وفي حديث آخر «اللهم أكثر ماله، وولده، وأدخله الجنة» واستجاب الله الدعاء، فصار أكثر الأنصار مالاً، ورزقه الله ١٢٥ ولداً، وأطال الله عمره إلى ١٠٣ سنوات، وكان يتمنى الفوز بالآخرة بالجنة.

◈ شمائله وفضائله:

كان أنس بن مالك رضي الله عنه خادماً أميناً للنبي ﷺ، فخدمه أحسن خدمة، ولازمه سفراً وحضراً، وسلماً وحرباً حتى في غزوة بدر وكان صغيراً، وائتمنه النبي ﷺ على بعض أسراره فحفظها حتى بعد وفاته، واطلع في أثناء خدمته على خصوصيات النبي ﷺ، وحدّث بها عدا ما يجب كتمانه.

وكان أنس بن مالك محباً لرسول الله ﷺ، شغوفاً بحبه، ومعبراً عن ذلك بدموعه كلما ذكره بعد وفاته، فكان يراه بكثرة في منامه، وترجم هذه المحبة باقتفاء آثاره، والتزام هديه وسنته، واشتهر ذلك عنه، حتى شهد بذلك أبو هريرة رضي الله عنه فقال: «ما رأيت أحداً أشبه صلاة برسول الله ﷺ من ابن أم سُليم» يعني أنس بن مالك، وقال عنه ابن سيرين رضي الله عنه «كان أحسن الناس صلاة في الحضر والسفر» ونقل هذه المحبة الصادقة، والترجمة العملية إلى

تلامذته، وورّثهم إياها.

وشارك أنس بالجهاد في سبيل الله، وكان صغيراً في بدر وأحد، لكنه رافق رسول الله ﷺ في بدر للخدمة دون القتال، ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره شارك بالقتال في غزوة الخندق وما بعدها، وشهد صلح الحديبية، وبايع تحت الشجرة، وشهد غزوة خيبر، وشارك في حصارها والهجوم عليها، وامتاز بأنه كان يصف لنا جميع أحوال رسول الله ﷺ وسيرته في الجهاد والقتال والصلح والمعاهدة وصلاة السفر، ثم شارك في غزوة مؤتة، ويوم حنين، ثم شهد حروب الردة وحروب فتح العراق، ومعركة القادسية، وكان من الرماة المصيبين، ويتقن الرمي بالقوس، وسعد بشهود انتصارات الإسلام، ونشر الدعوة في مختلف الأصقاع.

وفي المجال العلمي كان له السهم الوافر فكان يحفظ الأحاديث النبوية ويعلمها لسائر الصحابة، وسادات التابعين، فكان من كبار حفاظ الحديث، ويأتي ترتيبه الثالث في حفظ السنة وروايتها بعد أبي هريرة وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم، وساعده على ذلك ملازمته للنبي ﷺ أثناء خدمته لعشر سنوات، ثم امتداد عمره، فأخذت عنه عدة أجيال، ثم شارك في الجهاد، ثم استقر في البصرة فمكث فيها ستين سنة يعلم الناس، وروى عنه كبار الصحابة والتابعين، مع التحري للدقة في الرواية، والاحتياط فيها ، وحسن التحديث بإعادة الحديث، مع طلب العمل به، وبيان الأحكام الفقهية التي تؤخذ منه، فكان من فقهاء الصحابة، وأصحاب الرأي في الاجتهاد والاستنباط من السنة.

وشارك أنس رضي الله عنه في أعمال الخلافة وكلفه أبو بكر الصديق رضي الله عنه بحمل رسالة إلى أهل اليمن يستنفرهم للجهاد، ثم وجهه أميراً على البحرين، ولما

استلم أبو موسى الأشعري ﵁ ولاية البصرة في عهد عمر ﵁ قرب أنساً، واعتبره من خاصته ومستشاريه، وأرسله رسولاً إلى عمر في المدينة عدة مرات، ثم ولاه ابن الزبير ﵁ ولاية البصرة لمدة وجيزة أربعين يوماً، مما عرّضه لمحنة شديدة على يد الحجاج بن يوسف الثقفي، حتى طلب عبد الملك بن مروان من الحجاج ألا يتعرض له، ويطلق عنانه، ويعتذر له، يترضاه، ففعل.

◈ وفاته:

عاش أنس ﵁ دهراً، وطال عمره ببركة دعاء رسول الله ﷺ، وكان آخر الصحابة وفاة بالبصرة وذلك سنة ٩٣ للهجرة على الأصح، وهو يردد «لا إله إلا الله»، وبلغ عمره مائة وثلاث سنوات، ودفن على بعد فرسخين من البصرة، وكان بعض أولاده وأحفاده رواة للحديث، ولما مات أنس ﵁ قال مورق العجلي التابعي: «ذهب اليوم نصف العلم» وجمع مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى أوصافه فقال: «أنس بن مالك، الإمام، المفتي، المقرئ، المحدث، راوية الإسلام، أبو حمزة الأنصاري الخزرجي، خادم رسول الله ﷺ، وقرابته من النساء، وتلميذه وتبعه، وآخر أصحابه موتاً، روى عن النبي ﷺ علماً جماً، وعن أبي بكر وعمر وعثمان وعدة من الصحابة، وروى عنه خلق عظيم».

رحم الله أنس، وآنس روحه، وجمعنا وإياه مع الحبيب المصطفى ﷺ في الفردوس الأعلى، ونفعنا بعلمه، ورزقنا الاقتداء به، والحمد لله رب العالمين.